صحيفة بشر وأثرها في النقد العربي

أسامة محمد أبو هلالة

نشأت العرب الأوائل على البيان فكان زادهم الذي شبّوا عليه ومكمن فخرهم الذي يتفاخرون به، لما تحمل لغتهم من قوة ودقة وأساليب لغوية ميّزتهم عن غيرهم من الأمم. وقد أرسل الله بين ظهرانيهم رسولا معجزته الخالدة كلام من جنس لغتهم، فتحداهم بأن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، فتحداهم أن يأتوا ببعضه فلم يستطيعوا، ثم تحداهم أن يأتوا بآية منه فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا ذلك أبدا.

ذلك العصر الذهبي للغة العربية الذي قدر أن تحفظ قوالبه اللغوية في ذورة مجدها، أخرجها القرآن من بوتقة العرقية إلى رحابة العالمية، فانتشر الإسلام واعتنقته أمم شتى مما أدى بهم إلى الإقبال على تعلم العربية ومخالطة العرب. فأدى اختلاط العرب بالعجم إلى تلاقي الأفكار وتصادمها، وتفرق بعض الناس طوائف ومذاهب، كل ينتصر لما يدعو إليه وهمه تشييع الناس لنصرته. ولما كانت هذه الحال حرص كل فريق على طرق إلزام الحجة وإفحام الخصوم، وفي هذه الظروف، ولدت صحيفة قعدت لعدد من القضايا البلاغية والنقدية وكانت مفتتحا لباب من النقاش بين العلماء حول ما جاء فيها، إنها صحيفة بشر ابن المعتمر رحمه الله (ت ٢١٠هـ)[1]، فما هي هذه الصحيفة؟ وما موقف العلماء منها قديما وحديثا؟ وما أبرز القضايا التي عالجتها؟ وما مصادرها؟

١- هو بِشْرُ بنُ الْمُعْتَمِر المتوفَّى عام ٢١٠هـ/ ٨٦٨م، رأس المعتزلة في بغداد، وزعيم نزعة دعيت فيما بعد "البِشْرية" نسبة إليه، وعمادها آراؤه الخاصة في الاعتزال، من أبرزها قوله بتوالد الأفعال بعضها من بعض، وإجلاله العقل، بل تقديسه، تألق نجمه في عهد الرشيد، وكان له اتصال بالبرامكة، لما يجمعه بهم من تشيّع، برع في الجدال، وامتاز بقوة الحجة، وكثرة الرواية للشعر، وهو من فصحاء المتكلمين وبلغائهم، كان ينظم الشعر في الأغراض التعليمية والفكرية، وقد ذكر ابن النديم في "الفهرست" أنه نقل كثيراً من الكتب إلى الشعر، ولكن لم يحفظ الدهر منها شيئاً، كان يجيد المخمس والمزدوج، وقد روي أنّ إحدى مزدوجاته بلغت أربعين ألف بيت، رد فيها على خصوم المعتزلة، انظر: http://www.merbad.net/vb/showthread.php/17691

هذا ما سأحاول التعرض له في هذه الصفحات القليلة من خلال بعض اللمحات السريعة من السياق التاريخي لمسار العلماء، وبالوقوف على بعض الشواهد التي وجدت من قبل، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن النقد والبلاغة العربية لم يكونا وليدي تلك الصحيفة، بل كانا فطرة جبلت عليهما الطباع، فإن حاد أحدهم في التعبير ينصاع إلى أول تنبيه دون مجادلة أو مهاترة، وهذا ما يفسر عزوف كثير من العلم الأول عن التعليل، فالضوابط والأصول كانت لوازم نفسية ومعرفة بدهية عند أهل الذوق.

مكانة الصحيفة عند العلماء

لا يختلف أحد من العلماء حول مكانة الصحيفة، وما أثارته من قضايا جوهرية تتصل بعلمي البلاغة والنقد، فقد وردت فيها ملامح أساسية لما استقر عليه هذان العلمان، فكيف كان موقف العلماء منها؟

أولًا: القدماء

مثّلت الصحيفة وثيقة أساسية لبعض القضايا الأدبية والنقدية، ولأهمية هذه الصحيفة فإن أول من أوردها وعرف بها هو الجاحظ رحمه الله (ت ٢٥٥هـ) في كتابه **البيان والتبيين**[٢] ثم نقلها وأثبتها صاحب **العقد الفريد** ابن عبد ربه الأندلسي رحمه الله (ت٣٢٨هـ)[٣]، ومن هنا ولجت الصحيفة باب النقاش والدراسة عند من جاء بعد الجاحظ من العلماء.

فهذا أبو هلال العسكري رحمه الله (ت ٣٥٥هـ) في كتابه **الصناعتين** يستشهد بقول بشر بن المعتمر فيما أثاره تحت فصل "في كيفية الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه"[٤]. وتبعه ابن رشيق القيرواني رحمه الله (ت ٤٥٦هـ) في كتابه **العمدة في محاسن الشعر وآدابه** تحت باب "عمل الشعر وشحذ القريحة له" عند حديثه عن وسائل الشعراء لاستدعاء الشعر وأوقات صناعته[٥].

٢- عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٧، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج ١، ص ١٣٥-١٣٩.

٣- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ج ٤، ص ١٤٦-١٤٧.

٤- أبوهلال الحسن بن عبدالله العسكري، **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ص ١٣٤.

٥- الحسن بن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج ١، ص ٢١٢.

ثم جاء الراغب الأصفهاني رحمه الله (ت ٥٠٢هـ) في كتابه **محاضرات الأدباء**، واستشهد بقول ابن المعتمر في معرض حديثه عن ذم التشدق والتقعر في الكلام[٦]. وتبعه في ذلك برهان الدين الوطواط رحمه الله (ت ٧١٨هـ) في كتابه **غرر الخصائص الواضحة**[٧].

لقد كان بعض ما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر أساسا يحتكم إليه القدماء فيما يثيرونه من نقاشات أدبية ونقدية. فما رأي العلماء في العصر الحديث؟

ثانيًا: المحدثون

نظر المحدثون إلى صحيفة بشر بن المعتمر كوثيقة تاريخية مهمة لعلمي البلاغة والنقد حتى ذهب أحمد أمين رحمه الله (ت١٩٥٤م) في كتابه **ضحى الإسلام** إلى أن بشرًا يعد مؤسس علم البلاغة[٨]. فيما يرى إحسان عباس رحمه الله (ت٢٠٠٣م) في كتابه **تاريخ النقد الأدبي عند العرب** أن النقد الأدبي ولد في حضن الاعتزال والمتأثرين به وأشار إلى بشر والجاحظ[٩]، وإن كنا نخالفه في ذلك.

وفي ذات الاتجاه تقييم بدوي طبانة رحمه الله (ت٢٠٠٠م) في كتابه **البيان العربي** لصحيفة بشر، إذ يرى أنها أقدم الآثار التي عرفها تاريخ البلاغة، وما فيها من ضوابط دعائم اللفظ والمعنى ومطابقة الكلام لمقتضى الحال[١٠]. ويرى شوقي ضيف رحمه الله (ت٢٠٠٥م) في كتابه **البلاغة: تطور وتاريخ** أن الصحيفة خير ما أثر عن المعتزلة في البلاغة حتى مطلع القرن الثالث الهجري[١١].

هذه الأهمية التي أولاها العلماء حديثا لصحيفة بشر بن المعتمر يرى محمود مخلوف رعاه الله أنها مبالغ فيها، إذ سبقتها إشارات وأصول وجهود علماء استقتها الصحيفة وتشربتها[١٢].

٦- الراغب الأصفهاني الحسن بن محمد، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص ٩٨.

٧- برهان الدين إبراهيم بن يحيى الكتبي المعروف بالوطواط، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، طبعة بولاق، ص ١٥٥.

٨- أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ج ٣، ص ١٤٢.

٩- إحسان عباس، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الثقافة، بيروت، ط٤، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٠.

١٠- بدوي طبانة، **البيان العربي**، دار المنار، جدة، دار الرفاعي، الرياض، ط٧، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٧٢-٧٨.

١١- شوقي ضيف، **البلاغة: تطور وتاريخ**، دار المعارف، ط ٩، ص ٤١.

١٢- محمود حسن مخلوف، **البحث البلاغي روافده ومدارسه**، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٢١.

هكذا تتجلى نظرة المحدثين لصحيفة بشر بن المعتمر، حيث تشترك حولها الإشادة بها كوثيقة تاريخية مؤسسة لعلم النقد والبلاغة، سواء أكانت هذه النظرة تصب في عربيتها أم ترمي إلى نتيجة تلاقح الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية عند المتكلمين، وإن في إطار الموازنة البلاغية(١٣).

القضايا البلاغية والنقدية في صحيفة بشر بن المعتمر

تعددت القضايا النقدية والبلاغية في صحيفة بشر بن المعتمر، وهي في جملتها تتمحور حول أربعة محاور، لها أصولها في النقد والبلاغة في العصر الجاهلي، وصدر الإسلام، والعصر الأموي ومطلع العصر العباسي، فما هي أبرز تلك المحاور؟

المحور الأول: لحظات الإبداع الفني

أول ما يفتتح بشر صحيفته الحديث عن النشاط الذهني للمبدع، فينصحه باستغلال ساعات نشاطه، حيث تدر فيها قريحة الإبداع، وتبعث مكامنه، فتكون القريحة في تلك اللحظات مطواعة لرغبة الأديب، يقول: "خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف نسبا، وأحسن في الأسماع وأحلى في الصور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا خفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه"(١٤).

وبهذا الكلام يقصد بشر أن القريحة لا تتأتى في كل الأوقات، فقد تتمنع على صاحبها مهما كان مبدعا. ويمكن رصد ذلك في قول الفرزدق (ت١١٠هـ): "أنا أشعر تميم عند تميم، وربما أتت عليَّ ساعة، ونزع ضرس أهون عليَّ من قول بيت"(١٥).

إن تمنع القريحة على المبدع أمر فقهه الجاهليون، وهذا التجاذب بين المنع والعطاء جعلهم يتوهمون الجن مصدرا يلهم الشعراء ويفتحون عليهم، فلكل شاعر قرينه كامرئ القيس إذ يسمى قرينه لافظ بن لاحظ(١٦)، حتى أن أبا النجم العجلي (ت١٢٠هـ) يفخر بذكورة شيطانه، إذ يقول:

١٣- شوقي ضيف، **البلاغة: تطور وتاريخ**، ص ٣٩.

١٤- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٣٥.

١٥- عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **الشعر والشعراء**، تحقيق: أحمد محمود شاكر، دار المعارف، ط ٢، ج ١، ص ٨١.

١٦- أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، تحقيق: محمد علي البجاوى، دار نهضة مصر، ص ٥٠.

إنِّي وكُلَّ شاعرٍ مِنَ البَشَـرْ شيْطانُهُ أُنْثَى، وشَيْطاني ذَكَرْ(١٧)

وإن كان أبو نجم جارى ثقافة الشعراء، ووهم الجاهليين، فإن كثير عزة (ت١٠٥هـ) كان أكثر واقعية منه، فعندما سئل عما يفعله إن تعثر عليه الشعر قال: "أطوف في الرباع المخلية والرياض المعشبة، فيسهل علي أرصنه، ويسرع إليَّ أحسنه"(١٨). وإن كان كثير قد أشار إلى أثر المكان في در القرائح، فإن الحطيئة (ت٥٩هـ) أشار إلى العوامل النفسية فعندما سئل من أشعر الناس؟ قال: "النابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، وجرير إذا غضب"(١٩).

هذا وفي غيره من المواقف ما ينبئ عن إدراك النقد العربي الأول للحظات الإبداع وبواعثه النفسية والمكانية والزمنية.

المحور الثاني: علاقة اللفظ بالمعنى

علاقة اللفظ بالمعنى ثاني ما يقابلنا في صحيفة ابن المعتمر، وهي قضية شائكة في تاريخ النقد العربي، لكن ابن المعتمر، ومن قبل أن يتحزب النقاد، أكد على ضرورة التناسب بين الألفاظ والمعاني، فكل منهما زوج الآخر، ويبني بهما المتكلم بلاغته، إذ يقول: "وإياك والتوعر: فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما: فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. فكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال وكذلك اللفظ العامي والخاص"(٢٠).

هذا الكلام يمكن تفريعه إلى ثلاثة فروع:

١٧- **ديوان أبي النجم العجلي**، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٦١.

١٨- ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ج ١، ص ٧٩.

١٩- ابن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، ج ٦، ص ١٢٠.

٢٠- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٣٦.

١- اللفظ:

حذر ابن المعتمر من التقعر والتعقيد اللفظي، وهذا يمكن أن نتلمسه في التوجيه النبوي الكريم إذ يقول عليه الصلاة والسلام: "..وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون"(٢١)، ومن ذلك كان تفضيل عمر رضي الله عنه لشعر زهير بن أبي سلمى إذ يقول معللا إعجابه: "كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"(٢٢)، ومن هذا القبيل ما أنشده حماد الراوية (ت١٨٠هـ)، إذ يقول(٢٣):

وبعضُ قَريضِ القوم أولادُ عَلَّةٍ يَكُدُّ لسانَ الناطِقِ المتحفِّظِ

٢- تعاضد اللفظ والمعنى:

ينبه ابن المعتمر على ضرورة أن تواكب المعاني الشريفة ألفاظ كريمة، وبهما تتم الفكرة بأوفى وجوهها. ويمكن الوقوف على ذلك في قصة تحكيم النابغة بين حسان والخنساء رضي الله عنهما في سوق عكاظ، ومما أنشده حسان(٢٤):

لنا الجفناتُ الغُرُ يلْمَعْنَ في الضُحى وأسْيافُنا يَقطُرنَ من نَجدَةٍ دَما

ولَدْنا بَني العَنقاءِ وابنيْ مُحرِّقٍ فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابنَما

فعاب النابغة شعر حسان رضي الله عنه، لاستخدامه الجفنات، والضحى، وأسيافنا، وولدنا بني العنقاء(٢٥)، وذلك كونه في مقام فخر اقتضى منه المعنى ألفاظا تعبر عما يفتخر به، بيد أن الألفاظ التي استعملها قصرت عن أداء حق المعنى المروم.

٢١- ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج٢، ص ٤١٨، حديث رقم: ٧٩١.

٢٢- محمد بن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق: محمد محمود شاكر، دار المدني، جدة، ج ١، ص ٦٣.

٢٣- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ٦٦.

٢٤- عبدالرحمن البرقوقي، **شرح ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه**، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م، ص٣٧١.

٢٥- عبد القادر بن عمر البغدادي، **خزانة الأدب ولب لباب العرب**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج ٤، ص ١١٠- ١١٥.

وفي قصة احتكام امرئ القيس وعلقمة عند أم جندب حول شاعريتها شاهد آخر على حذق الجاهليين لما قرره ابن المعتمر، فقد حكمت أم جندب بشاعرية علقمة على زوجها امرئ القيس، بعد أن طلبت منهما قصيدة في معنى وقافية واحدة، وذلك لأن علقمة وصف فرسه بأكرم من وصف مُناظره(٢٦)، إذ يقول(٢٧):

فأَدْرَكَهُنَّ ثانِياً من عِنانِهِ يَمُرُّ كمَرِّ الرائِحِ المُتَحَلِّبِ

في حين لم يبلغ امرؤ القيس مبلغ علقمة، وقصرت ألفاظه عن شرف ما رامه من معنى، إذ يقول(٢٨):

فللسَّوْطِ أُهْوُبٌ ولِلساق درَّةٌ وللزَّجْرِ منه وَقْع أَخْرَجَ مُهْذِبِ

وغير ذلك من الشواهد، مثل طلب علي كرم الله وجهه تغير كلمة "الهند" إلى "الله" عندما أنشد كعب بن زهير رضي الله عنه قصيدته "البردة" في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢٩)، إذ يقول(٣٠):

إنّ الرّسولَ لسَيْفٌ يُسْتضَاءُ بهِ مُهنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مَسْلُولُ

وشتان بين المعنيين قبل وبعد تعديل اللفظ.

٣- موافقة اللفظ والمعنى للحال:

يرى بشر أن بلاغة المتكلم أو الأديب ليس في شرف ما يتناوله من المعاني أو الألفاظ أو وضاعتها، إنما بأداء الغاية وتحقيق الهدف وفقا لما يقتضيه المقام، وهذا الملمح البلاغي يمكن الوقوف عليه في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل

٢٦- ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ج ١، ص ٢١٨- ٢٢٢.

٢٧- هكذا في المصدر السابق، أما في **ديوان علقمة** فالبيت في القصيدة مثبت هكذا:

فأتبعَ آثار الشِّياهِ بصادقٍ ..... حثيثٍ كغيثِ الرَّائحِ المُتحلِّبِ.

ديوان علقمة بن عَبَدَة، شرحه وعلق عليه: سعيد نسيب مكارم، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٢٨- هكذا ورد البيت في **الشعر والشعراء**، أما في **ديوان امرئ القيس** فهو مثبت في القصيدة هكذا:

فَلِلسّاقِ أُهْوُبٌ وللسَّوْط دِرَّةٌ ..... وللزَّجْر منْه وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ.

شرح ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط ٥، ص ٥٠.

٢٩- عبدالقادر بن عمر البغدادي، **حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام**، تحقيق: نظيف محرم خواجه، النشرات الإسلامية، فرانتس شتاينر، ط ١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج ٣، ص ٦٣- ٦٥.

٣٠- صنعة الإمام أبي سعيد بن الحسن السكري، **شرح ديوان كعب بن زهير**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٢٣.

الباقرة بلسانها"[٣١]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "يا جرير، إذا قلت فسدد، ولا تكلف إذا قضيت حاجتك"[٣٢]، فالقول بقدر الحاجة عين البلاغة، يقول الخليل بن أحمد رحمه الله (ت١٧٠هـ): "يطول الكلام ويكثر ليفهم، ويوجز ويختصر ليحفظ، وتستحب الإطالة عند الإعذار، والترهيب والترغيب، والإصلاح بين القبائل، وإلا فالقطع أطير في بعض المواقف، والطول للمواقف المشهورات"[٣٣].

المحور الثالث: الطبع والصنعة

عطفا على ما سبق، فإن بشرا يتحدث عن القريحة الإبداعية عند الأديب، وقيمة نتاجها، فإما أن يكون مبدعا، أو يتعهد نتاجه ليرقى إلى مستوى الإبداع، أو من هو دونهما، وهذا يتوجب عليه ترك صنعة الأدب، ويشرع في البحث عما يجيده ويستهويه، يقول بشر: "فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام. فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقها ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت في مكانها نافرة من مواضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد، فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك وما لك عابك من أنت أقل عيبا منه ورأى من هو دونك أنه فوقك. فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة واعتاصت عليك بعد إجالة الفكرة فلا تتعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك وسواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجبة والمواتاة، إن كنت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق. فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك: فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء

٣١- الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج ٢، ص ٤٥٠، الحديث حسن، رقمه: ٨٨٠.

٣٢- علي بن حسام الدين المتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج ٣، ص ٣٤٦، الحديث مرسل، رقم: ٦٨٦٤.

٣٣- ابن رشيق القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، ج ١، ص ١٨٦.

لا يحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات: لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع الشهوة والمحبة، فهذا هذا"(٣٤).

تقسيم بشر هذا لأصناف المبدعين قد فطن إليه عرب الجاهلية، إذ صنفوا الشعراء إلى مراتب وطبقات، يقول الجاحظ رحمه الله: "والشعراء عندهم أربع طبقات. فأولهم: الفحل الخنذيذ. والخنذيذ هو التام. قال الأصمعي: قال رؤبة: "الفحولة هم الرواة". ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المُفْلِقُ، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشُّعرور"(٣٥). إذن فالعرب كانت تصنف الشعراء بحسب أصالة شاعريتهم ومدى انقياد الشعر لهم، وتمكنهم قياده.

أما تعاطي قرض الشعر الموزون، وتثقيف الأديب نفسه بدراسة مذاهب الأدب، فإن ذلك مثلته ظاهرة الرواة في الشعر الجاهلي، وهم الذين يلازمون فحول الشعراء يرون عنهم ويحذقون مذاهب الشعر، حتى لنجد الفرزدق يفتخر بوقوفه على شعر الأولين، إذ يقول(٣٦):

وَهَبَ القَصائِدَ لِيَ النَوابِغُ إِذ مَضَوا ... وَأَبو يَزيدَ وَذو القُروحِ وَجَروَلُ
وَالفَحلُ عَلقَمَةُ الَّذي كانَت لَهُ ... حُلَلُ المُلوكِ كَلامُهُ لا يُنحَلُ
وَأَخو بَني قَيسٍ وَهُنَّ قَتَلنَهُ ... وَمُهَلهِلُ الشُعَراءِ ذاكَ الأَوَّلُ
وَالأَعشَيانِ كِلاهُما وَمُرَقِّشٌ ... وَأَخو قُضاعَةَ قَولُهُ يُتَمَثَّلُ
وَأَخو بَني أَسَدٍ عُبَيدٌ إِذ مَضى ... وَأَبو دُؤادٍ قَولُهُ يُتَنَحَّلُ
وَابنا أَبي سُلمى زُهَيرٌ وَابنُهُ ... وَابنُ الفُرَيعَةِ حينَ جَدَّ المِقوَلُ
وَالجَعفَرِيُّ وَكانَ بِشرٌ قَبلَهُ ... لي مِن قَصائِدِهِ الكِتابُ المُجمَلُ
وَلَقَد وَرِثتُ لِآلِ أَوسٍ مَنطِقاً ... كَالسُمِّ خالَطَ جانِبَيهِ الحَنظَلُ
وَالحارِثِيُّ أَخو الحِماسِ وَرِثتُهُ ... صَدعاً كَما صَدَعَ الصَفاةَ المِعوَلُ

بل إن الرواية في العصر الجاهلي مثلت مدارس شعرية، كمدرسة زهير بن أبي سلمى، فقد كان راوية لعمه أوس بن حجر، وروى شعره الحطيئة وكعب بن زهير(٣٧).

٣٤- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٣٦.

٣٥- المصدر السابق، ج ٢، ص ٩.

٣٦- **شرح ديوان الفرزدق**، ضبط: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٣م، ج ٢، ص ٣٢٣.

٣٧- ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ج ١، ص ١٣٧، وأبو فرج الأصفهاني، **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بروت، ط ٨، ج ٢، ص ١٥٧.

وما سبق يقود للحديث عن ظاهرة الحوليات في الشعر الجاهلي، وهو ما يدعو إليه بشر الطبقة الثانية، وهم الذين لا تسمح لهم الطباع في أول وهلة، ومع أن زهيرا يعدُّ من عمداء الشعر الجاهلي، إلا أن نهجه هو ما يشير إليه بشر، فقد كان يبقى القصيدة حولا في حوزته يداوم تقليب النظر فيها حتى تخرج في أبهى صورها، يقول الأصمعي رحمه الله: "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر. -ويعقب الجاحظ بالقول- وكذلك كل من يجوِّد في جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة"(٣٨). إنها صنعة وأي صنعة يقول الحطيئة(٣٩):

فَالشِعرُ صَعبٌ وَطَويلٌ سُلَّمُه
إِذا ارتَقى فيهِ الَّذي لا يَعلَمُه
زَلَّت بِهِ إِلى الحَضيضِ قَدَمُه
وَالشِعرُ لا يَسطيعُهُ مَن يَظلِمُه
يُريدُ أَن يُعرِبَهُ فَيُعجِمُه

وأما الصنف الثالث فهم المتسلقون، ويدعوهم ابن المعتمر إلى التحول عن صناعة الأدب والبلاغة إلى أشهى الصناعات إليهم، ويكفينا دلالة على فهم الأولين لمكمن قيمة الإنسان قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (استشهد٤٠هـ): "قيمة كل امرئ ما يحسن"(٤٠). وفيما ورد عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قوله (استشهد ٩٩هـ): "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه"(٤١).

المحور الرابع: موافقة ومراعاة الحال

هنا يدعو بشر المتعلمين إلى مراعاة المتلقي، فمستوى الخطاب يجب فيه مطابقة مستوى السامع، لتتولد الفائدة من العملية الإبداعية، يقول ابن المعتمر: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما: حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار

٣٨- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ٢، ص ١٣.

٣٩- **ديوان الحطيئة**، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٣٦.

٤٠- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ٨٣.

٤١- محمد بن أحمد الإبشيهي، **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦م، ج ٢، ص ٦٢.

المسمتعين على أقدار تلك الحالات. فإن كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو معجبا أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين: إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحسن وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع. ولذلك قالوا: العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك.."(٤٢).

ما خطه بشر في هذه السطور ما هو إلا صدى لدعوة أفصح العرب محمد عليه الصلاة والسلام، إذ يقول: "..لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوهم أصلها فتظلموهم"(٤٣). وقد كان علي كرم الله وجهه يقول: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله"(٤٤)، ويقول الإمام الشافعي رحمه الله (ت٢٠٤هـ): "لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه، ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه"(٤٥) وقد سئل الخليل عن مسألة فأبطأ في جوابها فقيل له: ليس في المسألة كل هذا النظر، فقال: "فرغت من المسألة وجوابها، ولكني أريد أن أجيبك جوابا يكون أسرع إلى فهمك"(٤٦).

وإن يكن ذلك توجيه لمراعاة المتلقي، فإن أبا أسود الدؤلي رضي الله عنه (ت ٦٩هـ) قد دعا إلى مراعاة المتكلم نفسه، إذ يقول موصيا ولده: "إذا كنت في قوم فلا تكلمهم بكلام لم يبلغه سنك فيستثقلوك، ولا بكلام هو دونك فيزدروك ويحتقروك"(٤٧).

٤٢- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ١٣٩.

٤٣- الحديث عن ابن عباس وفيه هشام بن زياد وهو ممن ضعف وترك حديثه. عبدالله بن يوسف الزيلعي، **نصب الراية لأحاديث الهداية**، تحقيق: محمد حوامة، مؤسسة الريان، بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج ٣، ص ٦٣.

٤٤- محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج ١، ص٥٩، حديث رقم: ١٢٧، (باب من خص بالعلم قوما دون قوم).

٤٥- ابن مفلح المقدسي، **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٢٤٤.

٤٦- المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥١.

٤٧- الوطواط، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، ص ١٥٥.

بهذا يتضح رواج الأصول النقدية والبلاغية التي قررها بشر بن المعتمر في صحيفته في البيئة العربية الأولى، وفي عصر صدر الإسلام، والخلفاء الراشدين حيث العربية المعاصرة للجاهلية وما تبعها من عربية العصر الأموي، التي سارت على التذوق العربي الفطري، والإشارات اللماحة دون الحاجة إلى التقعيد، إذ كانت تلك الملامح بدهيات ومسلمات عندهم، ولكن الحاجة نشأت إلى مثل صحيفة بشر بعد اختلاط العرب بغيرهم، فوجد الدرس لتعليم العجم ومن فسدت عربيته في المدن، وللتأكيد على حجة الإسلام، وإعجاز بيان القرآن، والرد على المشككين والطاعنين فيه، وما يتصل ببيئة المتكلمين.

الخلاصة

تعتبر صحيفة بشر بن المعتمر أول صحيفة قررت بعض أصول علمي البلاغة والنقد وأتاحت للباحثين بل وفتحت أمامهم آفاقا رحبة مثلت معينا ينهل منها الدارسون، مما جعل القدماء والمحدثين يولونها أهمية ويعترفون بقدرها فعدوها وثيقة تاريخية لعلمي البلاغة والنقد. ومع ذلك فإن مفردات هذه الصحيفة والقضايا التي تطرقت لها ليست بأمر حادث، إنما استقاها بشر مما وقف عليه من علم، فقرر بنودها بعد إمعان النظر والاستقراء في معطيات الأدب والبيان العربي.

إن الانحياز إلى هذا القول لا ينتقص من أهمية الصحيفة ومكانة صاحبها، فلبشر الفضل كل الفضل في السبق إلى التقعيد بكلماته ومعانيه الخاصة، بعد هضمه معارف عصره وعلومه، وإلى هذا المعنى يشير عبد القاهر الجرجاني رحمه الله، إذ قال: "إن كان ما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر، ويناله بطلب واجتهاد.. فهو الذي يجوز أن يدعي فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية"(٤٨) وهذا ما قرره أستاذي نضر الله وجهه عندما قال: "لو تتبعت معظم الأفكار الواردة في الصحيفة لأمكنك إرجاع خير ما فيها إلى جذور عربية انقدحت أصولها في ذهن بشر فأتقن تحصيلها وتمثلها، ثم أبدع في تطويرها وتعميقها، ثم أجاد في وضع هذه الضوابط الرائعة"(٤٩).

Treatise of Bishr and its Influence on Rhetorical Criticism

This paper sheds light on the *Ṣaḥīfah* by Bishr which has treated a great deal of issues relating to Rhetoric and Criticism and opened the door of

٤٨- الإمام عبدالقاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة في علم البيان**، صححها على نسخة الإمام محمد عبده وعلق على حواشيها: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٩٤- ٢٩٥.

٤٩- محمود حسن مخلوف، **البحث البلاغي روافده ومدارسه**، ص ١٢٣.

many discussions for scholars of the past and present. The writer also tells us about the historical background of Bishr and the method employed by him in his work. Studying issues that have been introduced in the past, the writer shows that rhetorical criticism has been part of the literary discussion before Bishr's work appeared, though the latter significantly enriched it.

****